نكبة المؤرخ : حقيبة أبو القاسم سعد الله المفقودة!

!Historian's misfortune: Abu al-Qasim Saad Allah's lost bag

عبد القادر عزام عوادي*

مخبر بحث التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر

قسم التاريخ – جامعة الوادي

aouadi-abdelkaderazem@univ-eloued.dz

عبد الله رقيق

قسم علم الاجتماع – جامعة الوادي

abdallahreguig45@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/02/18 تاريخ القبول 2023/04/14 تاريخ النشر 2023/05/14

ملخص:

يعتبر الدكتور ابو القاسم سعد الله من ابرز مؤرخي الجزائر منتصف القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين، ويمتلك ابو القاسم سعد الله أو كما يعرف في الاوساط العلمية الجزائرية بشيخ المؤرخين الجزائريين رصيدا معرفيا وتاريخيا هاما يتجاوز 54 مجلدا، ولعل من ابرز هذه العناوين تاريخ الجزائر الثقافي، الذي استغرق فيه المؤرخ ابو القاسم سعد الله حوالي ربع قرن من الزمن.

ولم تكن حياة المؤرخ سعد الله ومساره البحثي سهلا أو ميسرا، وانما عاش مرحلة الاستعمار وثورة التحرير الجزائرية، وعانى من ويلاتها وهمومها وعايش مراحلها بكل

* المؤلف المراسل

جوارحه ودون الكثير من الاحداث التي مر بها الشعب الجزائري وقيادة الثورة التحريرية في مذكراته المعروفة بمسار قلم.

وبعد استرجاع السيادة الوطنية بدأ صراع آخر في الجزائر متمثلا في حرب ايديولوجية بين تيارات فكرية تريد مواصلة المسار التغريبي الفرنسي في الجزائر ومسار آخر يريد توطين واستعادة مجد اللغة العربية والبعد القومي الوطني للجزائر وتاريخها وحضارتها وهو الصراع الذي لم يسلم منه الدكتور سعد الله نظرا لطبيعة حضوره كشخصية ثقافية ومؤرخ جزائري مرموق يملك ادوات البحث وينتج الفكر.

هذا الصراع الذي احتدم في الجزائر لمدة عقود من الزمن بعد الاستقلال، كان شيخ المؤرخين ضمن فاعليه نظرا لما كان يتميز به من كتابة حول البعد الثقافي والهوية والقومية الاسلامية والعربية للجزائر، وهو ما جعل تيارات فكرية معادية له تحاول دائما نقد افكاره وربما محاربتها سواء عن طريق الكتابة او التضييق بأدوات ووسائل متنوعة ولعل من هذه المضايقات ما تعرض له الدكتور سعد الله في مطار لندن عندما سرقت حقيبته التي تحوي وتضم تراث الجزائر الثقافي والعديد من المخطوطات والوثائق التي كان الدكتور سعد الله يتنقل من اجلها من بلد الى آخر ومن قرية الى اخرى.

وفي هذا المقال سنحاول تتبع مراحل ازمة سرقة الحقيبة، والسياقات التاريخية لوقوع هذه الحادثة، وبعض آراء الدكتور سعد الله في معرفة من كان وراء عملية السرقة، وكيف أثرت حادثة السرقة في مسار مؤرخ الجزائر ابو القاسم سعد الله.

الكلمات المفتاحية:أبو القاسم سعد الله؛ تاريخ الجزائر الثقافي؛ الجزائر؛ فرنسا؛ لندن؛.

Abstract:

Dr. Aboul Qassim Saadallah is one of Algeria's most prominent historians in the mid-20th century and the beginning of the 21st century. and Abu al-Qassim Saadallah, as he is known in Algerian scientific circles as the elder of Algerian historians, possesses an important knowledge and historical asset that exceeds 54 volumes, One of the most prominent titles is Algeria's cultural history, in which the historian Abu al-Qassim Saadallah took about a quarter of a century.

The life of the historian Saadallah and his research course were neither easy nor accessible. He lived through the colonial phase and the Algerian liberation revolution. He suffered from its scourge and anxiety and lived through its stages in all its wounds. Without many events the Algerian people went through and led the liberation revolution in his memoirs known as the Pen Path.
After the restoration of national sovereignty, another conflict began in Algeria: an ideological war between currents of thought that wanted to continue the French tempestuous path in Algeria and another path that wanted to settle and restore the glory of the Arabic language and the national dimension of Algeria and its history and civilization, from which Dr. Saadallah was not spared due to the nature of his presence as a cultural figure and a prestigated Algerian historian historian historian.
This conflict that raged in Algeria for decades after independence s Islamic and Arab national identity and identity, This has made hostile intellectual currents always try to criticize his ideas and possibly fight them either by writing or narrowing them with various tools and means. Perhaps one of these harassments is Dr. Saadallah at London Airport when he stole his bag containing Algeria's cultural heritage and numerous manuscripts and documents for which Dr. Saadallah was traveling from country to country and from village to village.
In this article, we will try to track the stages of the pouch theft crisis, the historical contexts of the incident, some of Dr. Saadallah's views on who was behind the theft, and how the theft affected the path of Algerian historian Abu al-Qassim Saadallah.
***key words**:* Abu al-Qassim Saadallah; Algerian cultural history; Algeria; France; London;

مقدّمة:

على مر العصور والأزمان تعرض الكثير من العلماء والمفكرين والفلاسفة للظلم والجور من طرف شعب جاهل، أو سلطان جائر، أو العيش في مجتمع لا يفهم ولا يقدر ذلك العالم، وما أشد هذا العذاب أن تعيش في وسط مجتمع لا يفهمك ولا تفهمه. وهذا ما حدث مع جملة من علماء الأمة أنهم جاؤوا في وسط مجتمع لا يفقه ولا يدري ما يقولون وما ينتجون، وكلنا يعلم ما حصل لغاليلي غاليليو عندما صرح أمام الكنيسة الأوروبية ان الأرض تدور حول الشمس في ظل نظام كنسي هرطقي يستند الى نظريات يونانية قديمة،

وقبله استاذه كوبرنيكوس، وغيرهم من العلماء الذين عانوا هذا العناء في مجتمعاتهم وما أكثرهم في امتنا الإسلامية العربية.

لكن نكبة عالمنا التي سوف نتحدث عنها ليست أزمة مفكر أو عالم جاء في غير زمانه، أو ولد في مجتمع غير المجتمع الذي يصبوا اليه، ولكنه عالم ومفكر ومؤرخ وأديب ومترجم مخضرم عاش فترتين هامتين في مجتمعه، فترة الاستعمار والظلم والجهل والطغيان، وفترة الاستقلال وانتشار التعليم والحصول على نعمة الأمن والاستقرار التي طالما طمح اليها المجتمع الجزائري.

لن أخوض في هذا المقال في سرد سيرة هذا الرجل العظيم، فتعريف المعرف لا جدوى منه، فأبو القاسم سعد الله أقل ما يقال عنه أنه عالم موسوعي في زمن ندر فيه وجود علماء الموسوعات، وهو رجل انساني النزعة لا يحب أبدا النزعة المحلية ولا الإقليمية ولا الرؤية الضيقة خاصة في مجال الإنتاج العلمي والتعرف على الأمم والشعوب كيف لا وهو الذي اطلع على ثقافات الأمم والشعوب والقوميات من خلال المصادر والمراجع الكثيرة التي قرأها واطلع عليها وأيضا من خلال تدريسه لشتى التخصصات سواء في التاريخ او العلوم السياسية والعلاقات الدولية، ويكفي ان لديه كتاب تحت عنوان " شعوب وقوميات".

كما انه خرج من قرية فقيرة صغيرة لكنها مشبعة بالثقافة العربية والروح الإسلامية، من قرية البدوع في قمار التي تعلم فيها القرآن الكريم ومبادئ اللغة وعاش فيها مرتع الطفولة والصبا وشظف العيش الذي كان يعيشه وتعيشه اسرته، الى رحاب جامع الزيتونة المعمور ثم نحو قاهرة المعز بمصر، ليعيش تجربة أخرى اكسبته الكثير من الخبرة المنهجية والمعرفية الحديثة وهي الولايات المتحدة الامريكية حيث استقر به المقام والمقال للتخصص في المجال التاريخي.

كل هذه المقومات جعلت من سعد الله، باحثا مميزا وقلما حرا، وكاتبا نزيها، ومثقفا واعيا، وانسانا إنسانيا، فقمار انبتت فيه كيف يواجه الفقر والجوع والصعاب، والزيتونة علمه كيف يكون أصيلا ومتمسكا بثوابته وقيمه، ومصر علمته التضحية والجهاد داخل مكاتب جبهة التحرير وجمعية العلماء والنوادي العلمية والثقافية، وأمريكا غرست فيه روح الباحث الناقد والقارئ المتمعن والأكاديمي المتفحص.

أولا | عودة ابو القاسم سعد الله من امريكا وبداية الصراع الايديولوجي في الجزائر.

بعد عودة أبو القاسم سعد الله من أمريكا سنة 1967، واجهته الكثير من الصعوبات في بداية مشواره الوظيفي والبحثي في الجزائر، ونحن نعلم أن هذه الفترة شهدت الكثير من الأحداث خاصة بعد تنحية الرئيس بن بلة وحكم الرئيس بومدين عليهما رحمة الله، والصراع الفرنكوعربي، في الجزائر وأيهما يسيطر على مقاليد الحكم والتعليم والاعلام، وبالرغم من كل شيء واجه سعد الله بقلب رجل عظيم وبحكمة خبير بصير بمجريات الأمور كيف لا وهو المجاهد والصحفي والكاتب والمناضل في فترة حرب التحرير.

وبدأ سعد الله في الإنتاج العلمي والفكري، وبدأ يطوف ويجوب الزوايا والمدارس وارشيف ومخازن المخطوطات المبثوثة عبر مختلف قرى ومداشر ومدن الجزائر العميقة وكان يطوف بحقيبته وحبيبته من أجل العثور على مكنوزات التراث الجزائري وعلى ذخائر ونفائس الهوية الوطنية حتى يبطل ما كتبه الفرنسيون والغربيون من ادعاءات كاذبة وروايات زائفة وأقاويل باطلة في حق الامة الجزائرية وتاريخها العريق.

فبدأ في مشروعه الضخم والنفيس تاريخ الجزائر الثقافي، الذي صدر جزءه الأول 1979 والذي قال أبو القاسم سعد الله في مقدمته ما يلي " **هذا الكتاب هو ثمرة جهود دامت حوالي ربع قرن. فقد كتب عني المرحوم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي،**

رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1960، بأنني "مشغوف إلى حد الافتتان، بالبحث عن الآثار الأدبية والعلمية لعلماء الجزائر في جميع العصور"، وقد كنت حقا مفتتنا بهذا الموضوع منذ بدأت أعي معنى التاريخ والوطنية. وكان هدفي من البحث هو إنتاج عمل يكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية عبر العصور. ذلك أن المستعمرين الفرنسيين قد بثوا طيلة احتلالهم للجزائر بأنه لم يكن لأهلها ماض سياسي ولا ثقافي، وزاد إهمال الدارسين العرب والمسلمين لتاريخ الجزائر من حرصي على البحث والتنقيب. فالجزائر قد ظلمها أعداؤها وأشقاؤها على السواء، و ظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء"[1].

وفي هذا المجال والنطاق تخصص سعد الله عليه رحمة الله في الكتابة حول الهوية والثقافة والحضارة والانتماء، فكتب المؤلفات والموسوعات والمقالات حول الجزائر وبعدها العربي والإسلامي وتفاعلاتها الإقليمية والدولية مع الدول الأوروبية من خلال ترجمته المميزة على سبيل المثال لكتاب جون بول وولف " الجزائر وأوروبا"[2]، من خلال اهتمامه بالجزائر في الأدب الأمريكي، فكون سعد الله عليه رحمة الله من خلال انتاجه العلمي والبحثي الاكاديمي الرزين شخصية وطنية عالمية للجزائر وشعبها وبدأ يحارب بطريقة غير مباشرة كل أولئك المرتمين في أحضان ثقافات وحضارات غير حضارة البلد، وكل أولئك الذين يريدون أن يربطوا الجزائر بشمال الحوض المتوسط ويسعون أن يفصلوها عن جزءها الشرقي العربي الإسلامي.

ثانيا | الحاج ديكارت الجزائري... القطرة التي أفاضت الكأس.

وفي هذا السياق أصدر أبو القاسم سعد الله مقالته الشهيرة والتي قوضت مضاجع أولئك المتمسخين فكريا وثقافيا، ولكنها جعلت سعد الله عرضة للمواجهة أمام ترسانة قوية بفضل ما تملكه من امكانيات سواء مادية او معنوية، ولا ندري هل كان سعد الله عليه

رحمة الله يدرك أنه سوف يلاقي ما لاقى بعد ما كتب تلك المقالة؟ أو أنه كان يدرك وأراد الإفصاح عن ما يختلج داخل صدره، وكانت هذه المقالة تحت عنوان " الحاج ديكارت الجزائري" والمنشورة في جريدة الشعب يوم 24 ماي 1988، هاجم فيها الدكتور سعد الله من يريدون ان يدجنوا الشباب الجزائري ويقضي على شخصيته الوطنية وهويته العربية والإسلامية، وفضح فيها سياسة المدرسة الديكارتية الخاصة في تلك المرحلة والتي كانت تضم ما يفوق 1500 تلميذ جزائري خاصة من أبناء الشخصيات المرموقة والدبلوماسية[3]، وهاجم سعد الله تلك المدرسة لكونها في بلد مستقل وموحد لغويا ودينيا ولكنها تحاول زرع الفتنة وزعزعة الاستقرار الهوياتي للمجتمع الجزائري. هذا الأمر لم يعجب الكثير من أصحاب النستولوجيا نحو فرنسا ولغتها وثقافتها، وهو ما جعل سعد الله يلاقى تلك الفاجعة في يوم 27 أوت 1988 أي بعد ثلاثة اشهر فقط من إصداره ذلك المقال، ولكن سعد الله يعيد نشر مقال ثاني بعد سنة تقريبا تحت عنوان " أخبار الحاج ديكارت" وفضح فيها الكثير من الحقائق السرية والعلنية التي تقوم بها بعض الأجهزة التعليمية والأمنية الفرنسية في الجزائر من أجل الحفاظ على ارثها اللغوي والثقافي في الجزائر وكان المقال منشور في جريدة الشعب يوم 8 جوان 1989[4].

ربما لا يمكننا الجزم بأن ذلك المقال هو سبب نكبة سعد الله الثقافية كما عبر عنها في مقاله المعروف المنشور في جريدة الشعب يوم 15 سبتمبر 1988 أسابيع قليلة بعد فقدانه للمحفظة، ولكن الشكوك كثيرة في أنها كانت السبب الرئيسي لذلك، وأيضا لحد الساعة لا نستطيع التأكيد على سرقة الحقيبة من طرف جهات معلومة أو من طرف مافيا أو من سارق عادي يبحث عن بعض المال أو غيرها.

ولكن ما يزيد الشكوك والريبة أن تزامن سرقة الحقيبة بمطار هيثرو بلندن تم أيضا سرقة جهاز كمبيوتر لابنه احمد، وسرقة ذهب وأموال لزوجته حفصة وبعض الأغراض الأخرى

وذلك من بيته في الجزائر العاصمة، مع العلم ان السارقين كما كتب سعد الله عليه رحمة الله في مسار قلم الجزء الخامس كانوا من مراهقي أبناء الحي[5].

كما أن اشارة ابو القاسم سعد الله لطبيعة السارقين في مذكراته الشخصية مسار قلم مهمة جدا حيث قال :" **أرجح ان يكون السارق من المخابرات الفرنسية أو الاسرائيلية، وقد يكون السارق غير ذلك، مثلا من اللصوص المحترفين. وقد أعلنت عن السرقة لدى الشرطة البريطانية فثبطوا عزيمتي في العثور على الحقيبة.**"[6]

ثم يضيف في اشارة أخرى على نفس مقاس التهمة السابقة فيقول ما يلي: " **شخصيا اتصلت عدة مرات بشرطة لندن أسألهم لكن الرد دائما واحدا وهو أنهم لم يعثروا على شيء، وهذا ما يؤكد ان سرقة المحفظة مقصود بها العرقلة ووقف عملي الثقافي وليس السرقة العادية من اجل النقود ونحوها.**"[7]

ثالثا | أهم محتويات حقيبة سعد الله العلمية:

لاشك ان الحقيبة التي رافقت شيخ المؤرخين ما يقارب ربع قرن من مسار مؤرخ الجزائر، انها تحتوي على كنز ثمين من المخطوطات والوثائق والمسودات الخاصة بمشاريع ابو القاسم سعد الله الفكرية والتاريخية التي كان يشتغل عليها خلال تلك المرحلة، ولعل من اهمها المشروع الثقافي الضخم الذي أراد من خلاله شيخ المؤرخين ان يسد الفراغ ويضمد الجرح الغائر في تاريخنا الوطني، وذلك من خلال تتبع الثقافة الجزائرية عبر مسارها الطويل التاريخي من العصور القديمة الى الفترة المعاصرة، وهي الفترات والبعد الذي أرادت الترسانة العلمية الفرنسية طمسه ومحوه من ذاكرة الأمة الجزائرية.

ففي أول سطر كتبه في مذكراته الشخصية بعد ضياع الحقيبة وجزء هام من المذكرات، كتب سعد الله يقول يوم 6 سبتمبر 1988 ما يلي: "**كيف أبدأ هذه اليومية؟ أذكر القارئ بأنني فقدت المجلد السابق لهذا مع الحقيبة التي فقدتها في مطار هيثرو بلندن، يوم 27 اوت 1988. وكان في المجلد المذكور حوالي ثلاث سنوات من**

الأفكار والآراء. وهو مجلد عزيز علي إذ كتبته أثناء فترة النضج العقلي والتقدم نحو الشيخوخة."[8]، فنلاحظ من خلال بوح شيخ المؤرخين في مذكراته الشخصية بعد فترة وجيزة من ضياع الحقيبة، أن حزنه الكبير على ضياع دفتر يومياته الخاصة، والتي كما يقول مجلد عزيز كتبته أثناء فترة النضج العقلي والتقدم نحو الشيخوخة، وربما أسفه الأكبر أن المخطوطات والوثائق قد يعيد استرجاعها مرة ثانية من مضانها ومن مصادرها التي أخذها منها ولكن اليوميات يستحيل أن يستعيدها كاملة كما كتبت وكما عايشها.

وفي حوار صحفي أجراه سعد الله مع مجلة الوحدة سنة 1991 أجاب الصحفي عن أهم ما كان موجود في الحقيبة المفقودة، فقال في جوابه ما يلي:"**وليس فيها وثائق سرية ولكن مئات من بطاقات البحث في الجزء الثالث والرابع من كتابي تاريخ الجزائر الثقافي، ومئات من بطاقات البحث في الجزء الأول من الحركة الوطنية، بالإضافة إلى ما تم تحريره من الجزائر الثالث المذكور وهو ثلاثة فصول من الحركة الوطنية المذكورة أيضا.**

وهناك وثائق مصورة تتعلق برسائل علماء الجزائر في القرن الماضي، على غرار ما نشرت منها في الجزائر الثالث من أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. وهذه البطاقات والوثائق هي ثمرة جهد مضن ومتواصل دام أكثر من ربع قرن، وفي المحفظة دفتر يومياتي الذي احمله معي حيثما ذهبت". [9]

وربما يضيف أيضا سعد الله الى ما تم ذكره سابقا ما يلي : "... **ومعها اوراق هامة ومصورات ومصادر وغير ذلك من وسائل أبحاثي، وثلاثة آلاف فرنك فرنسي واوراقي بأمريكا...ألخ.**"[10]

رابعا | أثر عملية السرقة في الحالة النفسية والصحية لشيخ المؤرخين الجزائريين.

لعل القارئ غير المطلع يقول كيف لسرقة حقيبة أن تكون نكبة ثقافية لبلد كامل؟، أو أزمة حضارية لأمة جمعاء، ولكن الحقيقة تكشف عندما نعرف قيمة تلك الحقيبة، ودعني

أسرد ما قاله سعد الله في وصف حميمي لتلك الحقيبة المفقودة فيقول: " **ففي غفلة من الزمن ضاعت مني محفظتي اليدوية التي يعرفها كل من يعرفني منذ عشرين سنة، محفظتي المتآكلة الأطراف التي أصبحت تنافسني في تقدم العمر وفي التآكل أيضا، فقد أصبحت محفظة قديمة كما أصبحت قديما وباتت شيخة كما بت شيخا. وكانت رفيقة حركاتي حتى اني لا اعرف المشي والسفر بدونها، لأنها تضم كل أوراقي ومثمناتي، وكانت فيما أعتقد لا تألف يدا أخرى غير يدي، ولا أوراقا غير أوراقي، ولكنها هذه المرة خانت العهد وطارت مني بعد ألفة دامت ربع قرن، ومع ذلك حزنت على فقدها حزني على شيء عزيز ثمين، بل اني كدت أصعق لفقدها لأنها هربت بأمالي جميعا، فحطمت قلبي ورمت بمشاريعي الثقافية في الريح، هربت مني في مطار معروف بأنه مطار للطائرات و ((مطار)) أيضا للأحبة والأعزاء. فطالما سرقت فيه الأشياء والنقود، واختطف فيه حتى الانسان. وكانت محفظتي من ضحاياه المتأخرين، ذلك هو مطار (هيثرو) بلندن"**[11].

من يقرأ هذه الكلمات سوف يدرك جيدا قيمة هذه المحفظة، ليس لأنها محفظة تحتوي أشياء ثمينة من أموال او جواهر، ولكن الأمر أعمق من ذلك تماما، فهي محفظة قديمة متآكلة عمرها يفوق الربع قرن، ولكن هذا العمر لم يكن في أحد الرفوف أو في يد أحد رجال الأعمال، أو في قبضة فنان، لقد كانت ربع قرن في يد وقبضة وحضن مفكر ومؤرخ وباحث وناقد ومترجم وأديب وعالم موسوعي رحالة، فلك أن تدرك حجم الكنز العلمي والمعرفي والثقافي الذي ضمته تلك الحقيبة بين دفتيها، كم من صور لمخطوطات؟، وكم من تبييض لأعمال وأجزاء لمجلدات؟، كم من قصاصات مدونة؟، كم من صفحات لمذكرات؟، وكم من جداول وفهارس لخزائن ومخطوطات؟، وكم وكم ...؟، فقد كانت تحوي هذه الحقيبة تراثا إنسانيا ووطنيا ربما لن يعود مرة أخرى.

وبعد هذا لك أن تدرك حجم الكارثة أو الصاعقة كما ذكر سعد الله عليه رحمة الله التي أصابته عند فقده لهذه الحقيبة، وحجم المأساة والحزن الذي سيرافقه طوال حياته بل والأكثر من كل ذلك اصابته بأمراض وأزمات نفسية جراء هذه الفعلة الشنيعة التي أحس فيها سعد الله بعمل مخابراتي يترصده من أجل الانقضاض عليه وتحطيمه معنويا وهو ما ذكره للشرطي في المطار عندما قال سعد الله: " ... **ولكن الشرطي ابتسم لي بأسف قائلا: ان اللصوص سيرمون المحفظة بأوراقي حيث تعدم السيارات لكي يخفوا كل أثر للجريمة. فقلت له : واذا لم يكونوا لصوصا محترفين، وانما من رجال المخابرات المتسترين؟ فنظر إلي الشرطي باهتمام وقال: تتوقع ذلك؟ فقلت له: كل شيء جائز، حتى ((السابوتاج))**"[12].

بعد نشره المقالة المذكورة سابقا النكبة الثقافية، يكتب سعد الله في مذكراته اليومية الخاصة بيوم 30 سبتمبر 1988 فيقول " **صدرت كلمتي نكبة ثقافية في الشعب بتاريخ 9/8 الجاري، ومنذ هذا التاريخ والناس يهتفون منهم من يعزي في ضياع المحفظة وأوراقها ومذكراتي وفصول كتابي الثقافي، ومنهم من يعرض مكتبته لمواصلة الجهد. كما وصلتني عدة رسائل في هذا المعنى، ونشر أحد الأساتذة أمس في جريدة الشعب أيضا كلمة بعنوان " نداء وعبرة" قال أنه تنبأ بأن شيئا سيحدث لي منذ الصيف الماضي بعد حملة الطابور الخامس ضدي وبعد مقالة (ديكارت، وحفلة التكريم).**

ومازلت لم اجد الإرادة حتى الآن لاستئناف نشاطي العلمي فرأسي تضرني باستمرار، ومنذ أكثر من عشرة أيام وانا أعاني من زكام حاد والأرق أهلكني بحيث مرت عليا أيام دون أن أنام في الـ24 ساعة أكثر من ساعتين متقطعتين أحيانا."[13].

لذلك نجده يكتب في مقدمة تاريخ الجزائر الثقافي عن الكارثة التي أصابته كما وصفها هو بذلك، وتوقف عن الكتابة لمدة طويلة نظرا للصدمة التي أصابته جراء ضياع المحفظة وبقاء

الأمل دائما في العثور عليها حتى يأس من ذلك الأمر وعقد النية والعزم لمواصلة الطريق والمشوار فكتب في مقدمته لتاريخ الجزائر الثقافي يقول: " لكن **الكارثة وقعت حين ضاعت محفظتي بما فيها من فصول مكتوبة واوراق واضبارات وبطاقات سنة 1988.**

فتوقفت مصدوما لعدة سنوات متوقعا رجوع المحفظة، ومنتظرا عودة الروح الآملة، فأما المحفظة فلم تعد وطواها الزمان كما يطوي البحر سفينة تغرق، أما الروح الآملة فلم ترجع الا سنة 1992، حين استأنفت نشاطي الفكري وجمع مادة البحث، ثم سنة 1993 حين تحصلت على منحة فولبرايت، فسافرت الى الولايات المتحدة الامريكية، وهناك انجزت تسويد الكتاب خلال ثلاث سنوات متتالية، مع تضحيات مادية ومعنوية لا يعلمها الا الله."[14]

ولقد تهافت كل محبي ابو القاسم سعد الله بعد حدوث الواقعة بالتواصل معه ومواساته وعرض المساعدة عليه من أجل اكمال مواصلة مشروعه الثقافي، ولعل من أبرز من وقف الى جانبه أسرته وخاصة زوجته حفصة التي واسته في أصعب الظروف التي مر بها ابو القاسم سعد الله بعد ضياع الحقيبة فيقول عنها ما يلي :" **زوجتي واسعة الثقافة ومزدوجة اللغة وأصبحت بعد رحلتنا إلى أمريكا ثلاثية اللغة. وهي قارئة دقيقة ولكنها غير منتجة للثقافة. وقد قدمت إلى مساعدة عظيمة في مسيرتي منها إيمانها برسالتي الثقافية الوطنية. وهي التي واستني حين ضاعت محفظتي الثمينة وكدت أصاب باليأس والإحباط، وهي التي شدت من أزري كلما اعترضنني عراقيل وتحملت معي الغربة وشظف العيش والحرمان".**[15]

فنلاحظ من خلال هذه الكلمات أن ابو القاسم سعد الله تأثر كثيرا بسرقة المحفظة، وتوقف عن الكتابة والبحث لفترة طويلة وهو الذي لم يتوقف أبدا طيلة عقود من البحث والتنقيب والرحلة من أجل التعريف بتاريخ الامة الجزائرية وابراز ثقافتها وهويتها الاصيلة.

خامسا | تجدد نظرة شيخ المؤرخين لتاريخ الجزائر الثقافي بعد سرقة الحقيبة

فنلاحظ من خلال هذه السطور التي يكتبها سعد الله في يوم 30 سبتمبر أي بعد مرور ما يفوق الشهر عن ضياع المحفظة، وكيف يروي تفاصيل مرضه وحزنه واستمرار ملاحقة شبح فقدان المحفظة له في نومه ويقظته، وهو الأمر الذي سوف يتابع سعد الله طوال حياته فكل مرة في أحد كتاباته يكتب عن المحفظة وعن قيمتها وما تحويه من جواهر ونوادر، والأمر الثاني الذي نستفيده من هذه الكلمات أيضا ان أحد الأساتذة كتب أنه تنبأ لسعد الله بمثل هكذا عمل خاصة بعد نشر مقاله حول " مدرسة ديكارت"[16]، وهو الأمر الذي ذكرناه سابقا وربما هو الأمر الصحيح والصواب.

ومن أجل معرفة مدى تأثره رحمه الله بهذه الحادثة سأورد جملة من المقتطفات التي دونها سعد الله في كل مرة سواء بطريقة شخصية أو عن طريق جواب لسؤال موجه له حول الحادثة.

ففي سنة 1990 وفي حوار مع جريدة المساء عندما سئل سعد الله عن الهوايات فكان جوابه كالتالي: " **اذا لا بد من ذلك، فأفضل الهوايات عندي في هذه المرحلة من العمر هي المطالعة والكتابة والسفر الى المجهول أوالمعلوم الذي يضيف جديدا من التجارب الإنسانية. ومن الهوايات السلبية التفكير في حقيبتي التي سرقت مني وفيها تراثي الشخصي والوطني. فكلما ذكرتها – وانا أحب تذكرها رغما عني– تصاعدت الحمى في فرائصي وشعرت بالمرارة في حلقي. ولكني سرعان ما أحوقل، تاركا أمرها لقضاء الله وقدره."**[17]

وفي نفس السنة وفي حوار مع جريدة العالم اللندنية يجيب سعد الله حول الحقيبة الضائعة قائلا: " **الحقيبة ضاعت وضاعت معها ثروة هائلة، وضياعها خسارة للجزائر وللحضارة العربية الإسلامية، ولا يهم بعد ذلك أن يكون وراء ضياعها أيادي خفية أو علنية، ماذا يجدي الاتهام الآن؟"**[18]

وفي مجلة الوحدة الصادرة بتاريخ 25 جويلية 1991 يقدم سعد الله في حواره مع صحفي المجلة حجج أخرى تبين أن المحفظة لو ضاعت عن طريق الخطأ أو سرقت بطريقة عادية لعادت اليه بسبب ما تضم من وثائق وعناوين تدل عليه أو تدل على بلده وعنوانه البريدي، فيقول: " ..... **وأظن أنه لو كانت سرقة المحفظة عادية رجعت إلي، لأن فيها عنواني الشخصي وعنواني الجامعي، اذ ما فيها بطاقة التعريف الوطنية، ودفتر الشيكات وأوراق السفر الوزارية، بالإضافة الى بطاقة الإقامة بالولايات المتحدة الأمريكية التي منحتها لي سفارتنا هناك. أما الجديد بشأنها فلا يذكر حتى الآن"**[19].

أما من أواخر ما ذكره سعد الله عن الحقيبة في أحد حوارته الصحفية، والذي كان مع جريدة الحقائق والذي نشر سنة 2007، فقال عنها " **لذلك قصة طويلة لا يتسع لها هذا المجال، وقد تحدثت عن ذلك في كلمة منشورة بعنوان : (نكبة ثقافية) كما أشرت اليها في مقدمة الجزء الثالث من التاريخ الثقافي، ومقدمة الجزء الثاني من الحركة الوطنية، وهي جرح لا يندمل مدى الحياة رغم أنني أعدت كتابة فصول الحركة الوطنية وغيرت منهج التاريخ الثقافي في عهد الاحتلال، وراجعت كتبا ومخطوطات كنت قد قرأتها منذ زمن بعيد، وقد فاتني الشيء الكثير رغم ذاكرتي ورغم بعض البطاقات الباقية..."**[20].

ولكن بالرغم من كل هذه النكبة والأزمة فهل يدري السارقون أنهم يسرقون رجلا من أبناء الصحراء الجزائرية ومن منطقة البدوع موطن النخيل هذه الشجرة التي كلما قطفت منها زادتك من تمرها الحلو اليانع، أو لم يدرك السارقون أنهم يسرقون رجلا من الجزائر الحبيبة عاش الثورة التحريرية التي كلما استشهد فيها شهيد ولد من يخلفه ويعقبه لمواصلة الكفاح، هكذا كان سعد الله عليه رحمة الله مواصلا لرسالته الفكرية والحضارية في سبيل الحفاظ على هوية وانتماء البلاد ويقول في هذا السدد في مقدمة الجزء الثالث من تاريخ الجزائر الثقافي ما يلي: " **ومن حق القارئ أن يعرف أن هذا الكتاب قد ولد**

مرتين :فقد كتبت منه ثلاثة فصول ونصفا عندما كنت أستاذا زائرا في جامعة ميشيقان سنة 1988. وأثناء رجوعي إلى الوطن ضاعت محفظتي التي فيها الفصول المكتوبة وبطاقات الفصول الأخرى ومراجع وأوراق ومصورات كثيرة. وكانت النكبة التي ذكرناها والتي هزت كياني وشلت فكري فترة طويلة. ثم أمرع الفكر ورجع الأمل، فأخذنا في تصفح الذاكرة بحثا عن المراجع التي عرفناها من قبل والمخطوطات التي سافرنا إليها. وهكذا استأنفنا المسيرة في البحث. وقد واتت الفرصة يوم تحصلنا على منحة (فولبرايت) فسافرنا إلى أمريكا واستقبلتنا جامعة منيسوتا أستاذا زائرا، سنة 1993. وفي هذه الجامعة ولد الكتاب ميلاده الثاني في خلوة (كيرول) بمكتبة ويلسون. فقضينا فيها الأيام وجزءا من الليالي على مدى ثلاث سنوات بين البحث والتحرير والتنقيح والتصحيح. ويجب القول أن خطة الكتاب الأصلية قد طرأ عليها تعديل كبير بين الميلاد الأول والثاني. فقد كانت الخطة الأولى تشغل جزئين فقط ولا تتوسع في التعليم والتصوف والإستشراق ونحوها من الموضوعات. فإذا بالخطة الجديدة تشمل كل ذلك وتتوسع فيه وفي غيره، فأصبح الكتاب في عدة أجزاء، كما فصلنا .وصدق الله العظيم إذ يقول} :وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .{فإذا كان هدف المعتدي على المحفظة هو عرقلتي بعض الوقت فقد نجح، أما إذا كان هدفه هو سحق المشروع فقد خاب."[21] ويضيف عليه رحمة الله في هامش الصفحة انه قام بتعويض كل ما ضاع ماكان في المحفظة تقريبا، الا يومياته التي لا يمكن استعادتها وهي التي تضم سنوات 1984-1988.

هل يأتي يوم وتكشف حقيبة سعد الله؟ والسؤال الأكثر أهمية من هذا، ماذا لو لم يفقد سعد الله حقيبته! هل سيظهر لنا دراسات وحقائق أكثر مما أظهرها لنا بعد ضياع الحقيبة؟ وهل فعلا نجح السارقون في سرقة تاريخ وثقافة وهوية أمة عن طريق سرقة

المحفظة؟ وسؤالي الأخير هل تنجح بعض المؤسسات والهيئات الرسمية وغير الرسمية في تتبع والتحقق من الحقيبة في بريطانيا ومعرفة اين ذهبت هذه الحقيبة؟.

الخاتمة

من خلال ما تقدم يتبين لنا ان حادثة فقدان وضياع أو سرقة حقيبة شيخ المؤرخين الجزائريين ابو القاسم سعد الله من مطار العاصمة البريطانية لندن لم يكن صدفة او سرقة عادية وانما في غالب الظن ان السرقة تمت بشكل متعمد وانها كانت مخططة نظرا لما كان يحمله المؤرخ ابو القاسم سعد الله من مشروع فكري وحضاري وثقافي للجزائر وتاريخها.

ولعل مع مرور الزمن يكشف لنا التاريخ والبحث والتحري حقيقة هذه العملية ولما لا ربما العثور والحصول على الحقيبة في مكان ما من العالم.

من الأمور الايجابية ربما من عملية السرقة ان شيخ المؤرخين أعاد مراجعة تاريخ الجزائر الثقافي مرة ثانية، وتوسع هذا المشروع من جزئين ليصبح موسوعة ضخمة تضم ما يفوق عشرة مجلدات كاملة.

من واجب كل الباحثين العمل على اعادة قراءة أعمال شيخ المؤرخين ابو القاسم سعد الله والرجوع الى مصادره والى المؤسسات والمكاتب التي زارها شيخ المؤرخين في مساره العلمي والفكري، واعادة بناء الرؤية التي حاول شيخ المؤرخين رسمها لتاريخ الجزائر الحضاري بشكل عام والثقافي بشكل خاص.

الهوامش:

[1] ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص ص 13

[2] هذا الكتاب صدر سنة 1979 ولقد اقتناه الدكتور ابو القاسم سعد الله من الولايات المتحدة الامريكية في نفس السنة التي صدر فيها هذا الكتاب، ونظرا لاهميته التاريخية والعلمية، قام الدكتور سعد الله بترجمته وصدرت الطبعة الاولى لهذا العمل سنة 1985، ينظر: جون بول وولف: الجزائر واروبا، ترجمة: ابو القاسم سعد الله، طبعة خاصة، 2009، دار الرائد، الجزائر، ص ص 9.8.

[3] أبو القاسم سعد الله: في الجدل الثقافي، طبعة خاصة، وزارة المجاهدين، ص117

[4] المرجع السابق، ص 125

[5] ابو القاسم سعد الله: مسار قلم، ط1، ج5، عالم المعرفة، الجزائر، 2010، ص95.

[6] نفسه

[7] نفسه، ص95.

[8] نفسه، ص94.

[9] سعد الله، حوارات، ص114

[10] ابو القاسم سعد الله: مسار قلم، المرجع السابق، ص94

[11] أبو القاسم سعد الله: في الجدل الثقافي، المرجع السابق، ص29

[12] المرجع السابق، ص30.

[13] ابو القاسم سعد الله: مسار قلم، المرجع السابق، ص96.

[14] ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، ج3، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص ص 10.9.

[15] ابو القاسم سعد الله، حاطب اوراق، ص 277.

[16] نعتقد ان صاحب المقال المذكور هنا الذي كتب عن تنبأه بوقوع حادث لسعد الله هو الاستاذ يوسف مناصرية، وهو استاذ للتاريخ المعاصر بجامعة باتنة ووصلتنا معلومة من احد تلاميذه انه هو كاتب المقال في جريدة الشعب سنة 1988، ولكن للاسف لم نستطع الحصول على نسخة من هذا المقال لحد الآن.

[17] ابو القاسم سعد الله: حوارات، طبعة خاصة، 2015، عالم المعرفة، الجزائر، ص ص 100.99.

[18] ابو القاسم سعد الله: حوارات، طبعة خاصة، 2015، عالم المعرفة، الجزائر، ص ص 100.99.

[19] ابو القاسم سعد الله: حوارات، طبعة خاصة، 2015، عالم المعرفة، الجزائر، ص114.

[20] ابو القاسم سعد الله: حاطب أوراق، طبعة خاصة، عالم المعرفة، الجزائر، ص277.

[21] ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، ج3، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص ص 11.10.